جلنار

الى احمد شوقي بك
تقدمة الاخلاص

الحبّ سرّ الكون
(اناتول فرانس)

حكي ان جلنار كانت مالكة على مدينة من مدن فارس في العهد الذي تمزقت فيهِ هذه الدولة واستحالت ممالك صغيرة ولي عليها امراء وطنيون استقلوا بنفوسهم عن الشاه. وكانت جلنار كاعبًا بارعة الجمال وكانت عادلة تحسن السيرة في الرعية فمالت اليها القلوب وفرحت بها. وكانت إن ركبت في اهل مملكتها وطافت في المدينة هتف الشعب باسمها ودعا لها. الاَّ انها كانت كاسفة البال ضيقة الصدر ولم يكن دعاء الشعب ليجزّ من غلظها. وكانت اذا اعتزلت اهل قصرها وأوت الى خدرها احست انهُ ينقصها امرًا سعادة لها من دونهِ وهيهات ان تقف عليهِ او تتبيّن منهُ شيئًا

وكان لجلنار وزير اسمهُ زادويه تشدّ بهِ ازرها وتشركهُ في امرها. وكان شيخًا فهيمًا عالمًا بامور السياسة مطّلعًا على اسرارها. وكان مخلصًا لملكتهِ ينزلها من نفسهِ اقرب منزلة واجلها اذ كان الرجل الذي عُهد اليهِ في تدبير شؤونها منذ طفولتها. فتعهّدها بعنايتهِ الى ان نهدت وخلفت اباها بعد وفاتهِ

وسرعان ما تنبّه الوزير الى انقباض جلنار. فحار في امرها ولم يكن ليجسر ان يكاشفها بهِ خشية غضبها. لان الملوك في ذلك العهد كانوا يتقمون على من يداخلهم في امورهم وينزلون فعلته على الجرأة عليهم

بيد ان الوزير رأى من المفروض عليهِ ان يصارح جلنار القول في شأنها ويسعى لان يصيب لها فرجًا من همها. فدخل اليها ذات يوم فكفّر وخضع ثم لزم السكوت. فقالت لهُ جلنار ما وراءك يا زادويه وما بالك لا تعرض حاجتك وانت تعلم مكانتك عندي قال اسدَّ الله مولاتي بالعزّ والنصر انما الامر الذي مثلت من اجلهِ بين يديها هو اخلاصي لها بل اشفاقي عليها. لاني آنست منها كسوف بال اهمني واقلق خاطري. فطويت ذكرهُ بين جنبيَّ زمنًا اجلالاً لها الى ان اخذ في الزيادة مأخذًا لم ارَ لي فيهِ منصرفًا عن ان اقدم على المخاطرة في كلامها. وها أنا بين يديها فاشدها الله الاَّ بثّتني ما ألمّ بها. قالت جزاك الله خيرًا يا زادويه واني شاكرة لك عنايتك بامري ولا بدَّ لي ان افضي اليك بسريرتي

وانت مني بمنزلة أب من وحيدته . فاعلم انني مخبرة بما حولي كل الضجر وكأنهُ يقتضي امرٌ ان وُفقت الى الحصول عليهِ انفرج الهمُّ عني. فاطرق زادو به ساعة ثم قال لتأذن لي مولاتي ان اشير عليها بامر ربما كشف عنها الغمّ. قالت هيه انت في امان قال ان تشيد مولاتي قصوراً وتغرس جناتٍ وتميل اذنها الى الغناء هو خير لها . قالت سأعمل باشارتك يا زادو به ثم صرفتهُ

***

مرّ زمن على هذا الحديث واذا جلنار قد شادت قصوراً جاءت آية الفن الجميل وغرست جناتٍ ضاحكاتٍ جمعت فيها ما طاب من الاشجار وارج من الورود وجعلت من تحتها جداول وغدرانًا حتى اذا ما غابت الشمس جالت في جنباتها مستنشقة نسيماً عطراً. وكانت اذا راقتها زهرة لوت عليها كأنها تقبّلها او تجتذب منها عبيرها ثم تنصرف عنها وقد ابت ان تنتزعها من كمها تشاؤمًا . وربما لفت نظرها عصفور وضع رأسه بين جناحيهِ وهجع آمنًا فتتأملهُ ساعة ثم تهمّ ان تمسهُ اللمس الرفيق فيفيق العصفور مذعوراً و يطير الى غصن بانٍ مستجيراً . ثم تستأنف جلنار سيرها الى ان يقفها روضة كما اديمها اخضر ناضر وخضلها عيون جوار فتفترشها حتى يحضر وصائفها و يقدمن اليها الوان الطعام . ثم يأتي العازفون و يضربون على العود والطار و ينفخون في الناي و يغني المغنون رباعيات الخيام واناشيد الفردوسي . وكثيراً ما كانت تريدهم جلنار ان يفتوها نغمة (العياء) اذ كانت تجد في مدائها وعطفاتها ما يلائم شجوها . وتظلّ كذلك حتى يزيد التصيد والغناء في غمها فتصرف العازفين والمغنين وتخلو الى وصائفها . فيتحدث بعضهنّ الى بعض بصوت منخفض لو توجهُ احد المتصوفة لخيّل لهُ انهُ يسمع دوي نحل بعث الله بها اليهِ فهلّل وكبّر واستطار عقلهُ هلعًا

ثم تتخلف جلنار عن وصائفها وتصعد الى اعلى شرفة من شرفات قصرها وتسرح نظرها من حولها . فتبصر النهر وهو يشق المدينة شقين ثم ينصرف منها الى سفح الجبل بينا قواديس النواعير ترفع الماء الى الارض وتملأ الفضاء عويلاً ومآذن الجوامع تنعكس في الماء وتلتوي بليّاتهِ كأنها تمادت الى السماء واختلّ اساسها فارادت ان تنقض

وان جلنار لترتاح الى هذا المنظر ثم تخدر الى بستانها ثانية وتطوف في ارجائهِ وحيدة وهي لا تسمع سوى خفق نعليها . فتنزع من وحدتها الى حظيرةٍ قد مُدَّ على جوانبها

ومقاعدها سجّاد من سجّادات شيراز وفي زاوية من زواياها صهريج مرمر . فتجلس اليه واذا الماء وهو يرتفع من الفوّارة ثم يهبط في الصهريج كحديث يسرّ اليها نادرة من النوادر

***

غير ان جلنار لم تبرح كئيبة ساهمة مع الماء وهمسه والازهار وطيبها والطيور واغاريدها . فارسلت الى وزيرها وقالت لهُ يا زادويه اني لا ازال على ما عهدتني عليه من الانقباض وضيق الصدر ولم تغن اشارتك شيئاً فافتني في امري . قال اما والله اني ما زلت ابحث عن الامر الذي يسرّي عن ملكتي حتى رأيت لها رأياً لعلها تطيب به نفساً قالت واي رأي رأيت . قال زعموا ان ملكاً من ملوك ساسان يدعى شهريار اصابهُ ما اصاب الملكة اعزها الله من كسوف بال فحدثتهُ نفسهُ ان يدعو الرواة ليروواله اقاصيص واساطير واتفق انهُ تقدمت بين يديهِ فتاة اسمها شهرزاد قصت عليهِ حكايات الف ليلة وليلة . فارتاح الملك لمبتكراتها والف قصصها فاكرمها وقرّبها منهُ . فان حسن عند الملكة اصلحها الله ذلك الرأي فلترسل الرسل ليأتوا الينا بالرواة والمحدّثين . قالت افعل ما بدا لك . فقام الوزير من فوره واشار الى النجميين ان اضربوا لنا يوماً لامطر فيهِ ولا برق فضربوا لهُ يوم النيروز . فبثّ زادويه المؤذنين يؤذنون في المدينة والقرى ان الملكة نصرها الله تدعو الى قصرها في يوم النيروز كل من يحسن رواية الاحاديث والحكايات

ولما كان اليوم المذكور وفد الى القصر طائفة من الرواة والقصّاص . فرحّب الوزير بهم ولكل ضرب ساعة يقف فيها بين يدي الملكة . فدخل الواحد اثر الآخر وكلهم يتفنن في قصته و يبتدع في أسطورته حتى غدا الامر بينهم نضالاً انما الفائز فيهِ من شطح سبق مقالهِ واكثر من الخزعبلات والاباطيل . فذكر هذا الصهاريج المشهورة وخبّر ذاك عن السموات التسع والتسعين بعد الالف وساق ذلك الخرافات وما يتبعها من معجزات وآيات . وكان كل يمتاز بصفة فمنهم من كان فصيح اللسان لطيف الاشارة ومنهم من كان مليح الكنة فسيح المجال . وكان غيرهم غثّ الحديث ثرثاراً فلم يلبث ان يحسّ فضولهُ فينصرف خجلاً

واما جلنار فكانت متكئة على سريرها . وكأنك بها ومن حولها وصائفها قد استدرن حلقةً واسعة زهرة اغفلها من جناها وسط ضمّة من بنفسج . وكانت تصغي الى الاساطير والملح من دون ان تجد بها روحاً ولا مسرة بينما وصائفها ينشطن لها و يصفقن عجباً

ظلت جلنار على هذه الحال شهراً وهي تسمع ما تسمع من اساطير ونوادر حتى سئمت هذا الضرب من التسلية فأرسلت الى زادوبه وأوعزت اليهِ ان اطلق الرواة والقصاص سبيلهم . ففعل ثم ابطن في المدينة والقرى ان الملكة ابدها الله رغبت عن استماع المدح والروايات . ثم بات يعمل فكرته لعلهُ يستنبط رأياً جديداً في شأن الملكة فأعيته حيلهُ ولكنهُ ما فتئ يرجّي التوفيق اليهِ وقام في اعتقادهِ ان سيعينهُ على ذلك انسان لا يدري من سيكون أجني هو ام انسيّ أمن السماء مصدره ام من الارض أمن بلاد الروم متقدمهُ أم من الشرق ؟

***

وانهُ ليفكّر في مثل هذا إذ نزل بهِ امير من امراء العرب في طريقهِ الى بلاد الافغان . وكان الامير رسول سلام اليها من لدن عيون بلدتهِ . وكان شاباً جميل الصورة ذكيّ الفؤاد متقناً من اللغة الفارسية متفقهاً فيها . وكان يتدل على وجههِ نسيج حرير مخافة ان تشوههُ العيون شأن غير واحد ممن حسنت طلعتهُ من امراء العرب . وما هي الاّ ايام معدودات حتى قال الامير لزادوبه إنّا معشر العرب لا نخلّ في شأن من شؤون الضيافة فلا يحسن بي وقد هبطت هذه المدينة وهممت بالرحيل عنها الى مقصدي الاّ ان أبشكر للملكة السعة التي لقيتها في ديار مملكتها ثم ادعو لها بالنصر والسعادة . قال زادوبه قلت السعادة يا امير فاعلم انني وأيم الحق ما رأيت احداً قط أعوز الى السعادة من الملكة قال الامير سبحان الله وكيف ذلك فاخذ زادوبه يشرح لهُ حالة جلنار وكيف حاولت عبثاً ان يلهي عنها بناء القصور وغرس البساتين واستماع الغناء ثم ما كاد يخبرهُ بحكاية الرواة والقصاص حتى قاطعهُ الامير قال ويحك يا وزير اني ابرع خلق الله في مثل هذا الفن قال زادوبه بالله ماذا تقول قال الامير والبيت الحرام ما كذبتك الخبر قال زادوبه انهُ سيقام أصيل غد مهرجان فدعني اقدمك فيهِ الى الملكة واعرّض لها بشأنك واذكر لها براعتك في هذا الفن لعلها تستقصك قصة تشرح صدرها قال الامير إذأب دأبك قبل رحيلي وانا الكفيل بسعادة الملكة فلقد خبرتُ حقيقة حالها وسيكون لي ولها شأن من الشؤون

ولما كان اصيل الغد انصرف الامير الى المقمار وقصد الى حيث ضرب سرادق الخاصة واجتمع فيهِ بالوزير . فانطلق بهِ زادوبه حتى ادخلهُ على الملكة وكانت في صدر حاشيتها وجلسائها . فخضع كلاهما واخفى فتيتها الملكة وقالت لزادوبه من الرجل يا وزير

قال هو أمير من امراء العرب استضافني فاضفته ثم اراد ان يمثل بين يدي الملكة رعاها الله. فقالت جلنار للامير مرحباً بك يا امير العرب ثم قالت لهُ اجلس عن يميني ففعل. واما زادو به قدنا منها وقرّ في اذنها ان هذا الامير ابرع خلق الله في فن الاحاديث والروايات فلتسألهُ الملكة ان يزيدها من مثل هذا الفن. فابتسمت جلنار وقالت اما كفاني حديثاً وقصصاً ما سمعت فالتفت الوزير عليها ثم وقف ناحيةً. فدققت الملكة النظر في الامير ثم دعتهُ وقالت لهُ: بُلّغت انك يا أخا العرب تجمل في فن الاقاصيص ما شئت فهل لك ان تقبل الينا الليلة وتروي لنا روايةً من رواياتك. فكفّر الامير وقال ذلك لك يا سيدتي فجعلت بينهُ و بينها أجلاً يدخل فيهِ اليها وعيّنت لهُ الطريق التي يسلكها ليخلص الى خدرها. وما انتهت من حديثها حتى طبّل المطبلون وزمّر المزمرون وقدم الفرسان الواحد بعد الواحد يحيون الملكة بالبيض والسمر ويهتفون باسمها هتافاً ضجت لهُ اركان السرادق. ولما مرّ الفرسان على آخرهم برحت جلنار مجلسها وركبت في اهل خاصتها. فانفضّ المجلس وانقلب كل الى مأتاه

***

ولما جنّ الليل انتبذت جلنار ناحية من خدرها. وكانت الجنوب قد خفّ هبوبها وحملت على جناحيها اريج الازهار فنشرتهُ في الحجرة وأشعة القمر الفضية تنعكس في صهريج مزين باجمل الزخارف. وكأنّ الفوارة وهي تدفع ماءهُ معولة تسول صباح مساء لا ترتضي سلوى ولا عزاء. وكأني بها اذا سكتت تحتضر انتفضت انفاسه. وكان النسيم يداعبها و يعبث بالماء الذي تدفعهُ علّها تصغر طرباً غير انها اضحت وقد تبين في نغمتها الشجو والاسى. ففيما الصهريج كان يرنّ من قبل رنين الشكلى إذ صار الآن غديراً ساكناً تأتلف ماؤهُ من دموع منسجمات بين ضلوعها نشيج خافت

أثّر منظر الصهريج وصوت فوارتهِ في جلنار تأثيراً بلغ بها من الاضطراب مالا تطيق. فجعلت تفكر في حالها كيف تغيّر منذ الساعة التي نظرت فيها الى الامير وهي لم تكن لتعلم ان شعوراً جديداً آخذاً من قلبها مأخذاً بليغاً قد لطف حتى دق عن فهمها. وكانت ترنو من حين الى آخر الى باب الحجرة ثم تدير عينيها الى النافذة وتتبع سكنات القمر في كبد السماء ثم تعود ببصرها الى الصهريج فيخطر لها ان تقذف بنفسها فيهِ رجاء ان تسكن من لهيب جسمها ببرود مائهِ

وان جلنار لكذلك والسكون منبسط في جنبات القصر لا يعتريهِ الاّ صيحات

الحراس وتبرات البليل إذ صرّ الباب ومثل الامير به محجوب الوجه الكل العينين . فنظرت الملكة اليهِ لحظة لم تقوَ في اثنائها ان تحدثهُ كأنها ذعرت من امر فوجئت به . واما الامير فظلّ جامداً في مكانهِ وجعل يصرّف بصرهُ في زوايا القاعة كأنما هو باثع اثاث يقيم لما تضمهُ الحجرة الوزن الذي يراهُ لهُ . ثم ان جلنار اشارت اليهِ ان اجلس قبلي فامتثل الرجل صامتاً . فقالت لهُ جلنار وفي صوتها شيءٌ من الرعدة ما سكوتك يا ضيفنا قال انما سكتُّ اذ لا يجدر بي ان اكلم الملكة جعلني الله فداها قبل ان تفسح لي في الكلام . فبسمت جلنار واسندت رأسها الى يدها ثم قالت صدقت يا امير فزدنا الست القائل إنك اسبق العرب في فن الحديث قال ذلك قلت . قالت ايهِ لقد ضاقني الهم ليلتنا هذه فعسى ان تحسن الينا فنحسن اليك قال : عليّ ذمة لا ذقت طعاماً ولا شراباً حتى اقضي عند الملكة اكرمها الله ما انا قاضٍ واما جزائي فحسبي انني اليها جالس واياها احدث . ثم جلس جلستهُ وشرع يروي قصة جميل وبثينة تلك القصة التي ظلت حديث الناس زماناً طويلاً . فبسط كيف نشأ جميل في قومهِ وكيف كان شاعراً رقيقاً متلافاً . ثم انصرف الى حكايتهِ مع بثينة وفرارهِ من وجه الوالي . ثم نزولهِ على بني عذره في الشام والحيلة التي احتال عليهِ ضيفهُ اذ زيّن لهُ سبع كعاب متبرجات على ان تقنع احداهنّ من نفسه . ثم خبّر كيف كان الحبان يلتقيان في الخلاء ويتعاتبان ويتراضيان ويشكو كل واحد ما يقاسي فيؤاسيهِ الآخر . ثم ذكر كيف نال الحب من قلبيهما منالاً عنيفاً لا سبيل عنهُ . وكيف تزوّجت بثينة رجلاً غير جميل ولم تنفكّ ترعى لجميل الذمة والميثاق وتحفظ لهُ في قلبها مكانتهُ السابقة وهي تحبهُ حبًّا جمًّا ما فيهِ ريبة ولا شبهة . وكيف وشي بها ظلماً عند ابيها وقد كلف بها جميل وهام من اجلها في كل واد ثم نعي عن لقائها . فكان يصعد ليلاً الى ربوة ليستروح النسيم المقبل من نحوها وهو ينشد الاشعار ويبكي سوء طالعه . وكيف كان يتنكر ليستطيع الوصول اليها . فاحتبستهُ بثينة في خدرها ذات مرة ثلاث ليال وهو مستخف تحت ثياب متسول مسكين . وكيف كان يغني وهو في الركب فتسمعهُ بثينة من دون اترابها وتقبل اليهِ . ثم روى كيف ضجّ اهل بثينة وخشوا الفضيحة واستباحوا عند الامير دم جميل فقصدوا الى ابيهِ وناشدوهُ الله ان يدفع ابنهُ عن فتاتهم . فدعاهُ ابوهُ وقال لهُ اوما تكفكَ عن حب حرة تضمر لبعلها ما لا تضمرهُ لك . فبكى جميل وابكى من حولهُ ثم انطلق الى مصر حيث مات كمداً

تلك القصة التي ابدع الامير في روايتها ما شاء ان يبدع . وكانت جلنار تقاطعهُ في

بدايتها فسألهُ عن هذا وتزيدهُ من ذلك . ثم انها ما عتمت ان لزمت السكوت وجمعت للحديث بالها مخافة ان يفوتها منهُ حرف . وكانت تزداد اضطراباً كلما ازداد الامير بياناً . وكانت تتبع اشاراته وكلماته حتى امست اسير حديثهِ ولفتاته . وكأنها نسيت حقيقة حالها فشغلها عن ملكها وتاجها وعظمتها عواطف الفتاة الساذجة التي تتفتح جوانحها لشعور جديد يملك عليها

وكانت حالها في ذلك حال كل فتاة قضت صباها لا تلتمس السبيل الى الحب ولا تقطع بشيء من امره بل لا تعرف منهُ كثيراً ولا قليلاً . فنشأت ساهمة بعيدة من مضطرب النزعات والاحساسات التي لا بد لها ان توافي النفس في حين قد أتيح لها . وكأن قصة جميل و بثينة اصابت من نفس جلنار موضعاً دقيقاً اندفعت منهُ عاطفة الحب بقوة . وذلك هو الحب الثائر الذي احتجب دهراً وتجمد في القلب وتمكن بين جنبيهِ مثل الغمام المتلبّد في زاوية من السماء ربما لبث يوماً او يومين على حالتهِ حتى تمر عليهِ ريح باردة فتودّهُ مطراً

وكانت جلنار تصيح في وجه الامير اذا هو اكبر شغف بثينة بجميل أفي استطاعتنا معشر النسوة ان نحب مثل هذا الحب ؟ كأنما الامر من وراء عقلها فعظم عليها وقوعه . وان رقى الامير لهمّ جميل واشتكى حظه استدمعت وقالت والهي واهي لو احبني جميل ما حال بيني و بينهُ الا خروج نفسي

ثم ان الامير لما فرغ من قصتهِ كشف عن وجههِ فانشقّ الحجاب عن خلق سوي قسيم . واطالت جلنار فيهِ النظر شاخصة الطرف ساعة فانتشر عليها رأيها وكأنها بهِ ذلك الذي عشق بثينة العشق الصادق المنيع وخيّل اليها انها هي نفسها تلك التي احتبست جميلاً ثلاث ليالٍ في خدرها . ثم حولت بصرها الى النافذة . فكأن الليل طوى بين جنبيهِ سر الخلود والنجوم ازدادت تلألؤاً ونوراً والقمر ضرب في السماء عرضاً وطولاً والازاهر انتشرت في جنبات الحجرة طاقات وثيجاناً والصهريج عاد عن تشبيههِ وطفق يترنم مبتهجاً مسروراً . وكأنهُ زلزل عليها فدارت المنظورات من حولها دوراناً شديداً وشعرت بان نفسها تساقط من بين جنبيها . وهي لا تزال ترنو الى الامير من طرف فاتر مستسلم واذا البلبل ينرّد على رأس التبع على مقربة من النافذة ويخفض صوتهُ و ينبره منطلقاً في نغمة من نغماتهِ بينما الماء يلازم قراراً واحداً